قراءة في كتاب بشير المؤدب «فلسفة الثقافة»:

المعطى الديني مترسخ في المخزون النفسي والاجتماعي العربي وهناك نخبة واسعة غريبة عنه
التشبث بالثقافة الأصلية مهمة شاقة والأهم من ذلك هي إرادة المعرفة التي تتلاقح مع ثقافة أخرى

جعفر حسين*

تحديد المفهوم: رفع اللبس

يبن في هذا الإطار بأن هناك ارتباطا وثيقا بين الثقافة والحضارة، لكن كلمة ثقافة تسبق كلمة حضارة وهي شرطها الضروري في تكوينها ووجودها.

ولكنه قدم تعريفا «مجموع القيم المادية والروحية المكتسبة والمتراكمة عبر التاريخ» وهو معنى لا يهمل دور الإنسان بوصفه صانعا لعملية الثقافة. فعادة هناك من يرى من كلمة الثقافة أنها ترمز إلى الآثار الفنية وإلى التعليم. وكذلك لا يقبل بتعريف يقول بأن الثقافة تنحصر في مجال إنتاج الأفكار: العلم والفلسفة والدين والأخلاق.

وهو أيضا تصور يقصر بدوره أشياء كثيرة مثل الأعمال المثقلة بالأعمال البدنية والتصرف في العلاقات بين الأفراد. فالثقافة هي خاصية مميزة للإنسان من حيث عمله وطريقته في إنجاز ذلك العمل وهو يحقق ذاته، فعبر الثقافة يحقق الفرد من خلالها ذاته وكذلك بالنسبة للمجتمع.

ماذا تعني الكلمة بالذات:

تعني الكلمة حرث أو نمى ويقصد بذلك تنمية الأرض ومحصولاتها وهي التقدير والزراعة.

إن الكلمة بمعناها الأصلي تدل على العمل القيم وبما أن العمل هو وسيلة لإعطاء قيمة للعالم ومن ثم فإن الثقافة هي بمثابة العامل الذي ينير كل ما هو جوهري في الإنسان.

ويبين الباحث من جهة أخرى بأن الإنسان هو ظاهرة طبيعية وكذلك ثقافية فهي تتمظهر في مختلف السلوكات البشرية والتصرفات الفردية ومختلف أشكال التعبير الإنساني التي تخصه ككائن بشري.

أما في العنصر الموالي فسيبين فيه أشكال تمظهر الثقافة، فما هو مضمون ذلك؟

3– فما هي الأشكال التي تتمظهر فيها الثقافة؟

أ- توجد كنشاط بشري معمم في طرائق ومناهج معينة: التقنيات والمهارات...

ب- توجد في شكل صور دلالية ورمزية للفكر: الدين والأساطير والفن...

ج- توجد في شكل متشيىء كتجسيد لنشاط الإنسان الهادف: العمل.

إن هذه الأشكال التي تتمظهر فيها الثقافة يمثل الإنسان طرفا فاعلا في إنشائها فهي بمثابة نسق من الأشكال المادية والرمزية وقيم ومثل عليا واتجاهات معيارية ونظام يحتوي طرائق العيش وأسلوب التعبير والتفكير فجميع ذلك بمثابة الأدوات للتشكيل. الثقافة يستعين بها الإنسان ودون الدخول في التقييمات الإيجابية والسلبية ومختلف أشكال التوظيفات لهذا التشكيل.

إن أشكال الحياة الروحية في المجتمع من أدب وعلم وفقه هي ظواهر ثقافية، فهي تنظم وتعقلن العواطف وتفيد في ربط الصلة بين القلب والعقل وتوفق بينهما كلما برزت حالات من عدم التناسق.

إن البعد الثقافي العام للعلم كبير جدا فهو يرفع من شأن الإنسان والمجتمع إلى مستوى عال من التطور الروحي بتضخيم قوة العقل. لكن في العلم نرى الظاهرة الثقافية لا تنتمي إلا لما من شأنه أن يساهم بصورة مباشرة أم غير مباشرة، في استكمال المبادىء العقلية السامية في الإنسان والمجتمع ولا يمكن أن نسند صفة ثقافي إلى نشاط يهدف إلى هدم إنتاجات عقل الإنسان أو يده فالفكر ظاهرة روحية إيجابية. ولكن هناك مضار عند توظيف والاستخدام السيء للعلم عندما يغيب الضمير الأخلاقي والإنساني فهو يتحول إلى مخرب ومفسد ليس بالمعنى الأخلاقي والإتيقي فحسب وإنما أيضا اجتماعيا وثقافيا وفكريا.

الثقافة المضادة:

إن صفة «ثقافي» تشترط شيئا أكثر من القدرة على حل مشكلات معقدة على الصعيد العقلي أو إجمال السلوك في المجتمع، فالثقافة الحقيقية حسب الباحث تضمن احترام العادات الصورية والقواعد الوضعية في المجتمع وهو عبارة عن شيء راسخ في بنية الشخصية وفي الشعور وقبل الشعور وفي عادات الإنسان نفسه.

المثقف ودور التربية:

إن من شروط المثقف حسب الباحث بأنه لا يكتفي أن يملك الإنسان ذكاء رفيعا ومعرفة موسوعية بل يشترط ضميرا حيا ووعيا نافذا كما يتجنب كذلك الجرأة في التزام الصمت الكامل عندما تتطلب الأوضاع لذلك ولربما تحثنا على التناغم مع صوت هائل لأحد العظماء من هذا العالم وإن كان ذلك على حساب مصلحة المجتمع، الدفاع عن القضايا العادلة.

فمن شروط المثقف هو أن يحيا الإنسان صراعا داخليا مريرا يعتريه التشكك في كل شيء. فهو شعور بنوع من التعاطف مع مصير شعبه. إن الغاية هنا أن يحيا المثقف من أجل الآخرين وأن يعمل بإخلاص من أجل نصرة الحق والجمال والخير. ويعني كذلك القدرة والشجاعة على تحمل المسؤولية وإن كان هذا لا يشمله مباشرة ومسؤولية ما يحدث للآخرين لا فقط بالنسبة للأصدقاء وكذلك بالنسبة لشعبه والبشرية قاطبة. وهنا تتدخل التربية فكل تقدم ثقافي حسب الباحث لا يمكن تصوره بدون تربية فهي بمثابة الشاهد في سباق القيم الثقافية من جيل لآخر وتساهم في تكاثرها.

الثقافة والتاريخ

الثقافة هي ظاهرة اجتماعية متجذرة في الماضي والحاضر إلى المستقبل. فثقافة الماضي عبارة عن شاهد لأعمال الإنسان الذي يترك أفكاره وكذلك ثمرة عمله إلى الأجيال القادمة في سيرورة الزمن التاريخي؟

إن الثقافة من حيث جوهرها تشارك بوصفها صورة للحياة المتينة تاريخيا وفي تعبيرها الحالي الروحي والعلمي، في الماضي كما في المستقبل. فهناك إذن بعد تاريخي في الثقافة.

إن هذا البعد التاريخي في الثقافة يعطي طابعا خصوصيا إلى أسلوب الحياة عندهم وأفكارهم ومشاعرهم وعلاقاتهم البشرية وموقفهم إزاء الواقع في المجتمعات.

– ويقدم الباحث في هذا الإطار خصوصية بعض المراحل التاريخية (العهد اليوناني، العصر الوسيط، أواخر القرن التاسع عشر) إزاء الإنتاج الثقافي.

ويستنتج الباحث بأن المعطى الديني مترسخ بشكل مكثف في المخزون النفسي والاجتماعي وعند شرائح اجتماعية واسعة، كما يوجد عكس ذلك إذ أن نخبة واسعة في المجتمعات العربية غريبة عن ذلك، والأمر في كلتا الحالتين حسب رأينا يحتاج إلى دراسات في مختلف مجالات العلوم الإنسانية لتفهم هذه الظاهرة؟

حوار الثقافات

يركز الباحث هنا على الطابع المتناقض للثقافة الذي يعود إلى اتجاهات وعناصر تقدمية ديمقراطية ورجعية ومتخلفة تتضمنها كل ثقافة، وينحصر المعنى السلبي فيما يسمى كلمة «ثقافة جماهير» فهذه الشريحة الاجتماعية لا تسمو إلى مستوى الثقافة الحقيقية فهي تسقط فيما يسمى بـ«الذوق البليد» الملازم للطبقات المتخلفة الشعبية تنحدر إلى حد أنها تصبح مزعجة بالنسبة للذوق الجمالي «الحسن».

وقد أشار كذلك إلى العلاقة بين الثقافة والتطور التقني، فهي علاقة ليست ميكانيكية فبعد أن كانت الثقافة في الماضي منغلقة على ذاتها نراها اليوم متفتحة على غيرها من الثقافات وتتأثر بتأثيرات مختلفة: فهناك تفاعل بين الثقافات مما يساهم في رفع مستواها، فرغم وحدة كل ثقافة وخصوصيتها، حيث يعود نسيجها إلى الماضي المقدس فإن النظم الثقافية المختلفة تكون مبدئيا قابلة للمقارنة وأن الحوار بينها المبني على أساس التفاهم المتبادل يكون ممكنا. وهي حسب استنتاج الباحث بأن الثقافة من حيث تعبيراتها الفردية والاجتماعية والنفسية تتميز كذلك باستعدادها لتمثل الثقافات الأخرى وعلى العموم بموقفها إزاءها فعدم الاكتراث بالقيم الغير الثقافية وعدم اعتبار طابعها المميز ينم عن ضعف المستوى في التطور الثقافي الذاتي.

واعتبارا لتطور الثقافات القومية والتقدم المستقبلي للبشرية فإن الأمر سيكون في اتجاه الإثراء المتبادل أكثر فأكثر بين ثقافات الغرب والشرق بالمعنى التاريخي. فهذا التأليف والالتقاء لا يأتي إلا بقيمة إيجابية ألا وهي ثقافة السلم.

الإنسان والثقافة:

ينطلق الباحث من بيان أهمية الإنسان وحضوره في تحاليل العلماء والفلاسفة والأنتروبولوجيين، ولكن فإن على أهمية هذا الكائن فإنه في إطار الإشكالية التي يطرحها الباحث فهناك علاقة بين الإنسان بالثقافة التي أثارت إنتباه العديد من الباحثين في العديد من الأقطار والمجامع العلمية والمناسبات الدولية والعربية.

ولكن التفكير في ثقافة الإنسان يفترض بادىء ذي بدء تحليل جوهر الحضارة فما مضمون ذلك؟

مفهوم الحضارة:

إن فكرة الحضارة تعود تاريخيا إلى طور تكوين الرأسمالية لتبرير مبدأ التقدم التاريخي وضرورة تجاوز الإقطاع .

إن فترة الرأسمالية قدمت محاولات في تفسير القوى المحركة للتاريخ بالرجوع إلى المصالح الحيوية للبشر والرغبة الجانحة إلى العدل الاجتماعي والمساواة أمام القانون والحقوق المدنية والسياسية.

ومع تعمق التناقضات الاجتماعية في الرأسمالية بدأ عما يسمى بـ«أفول» التقدم الاجتماعي ومبالغة بعض المفكرين في ذلك من مثل عالم الاجتماع من أصل روسي سوروكين، فالثقافة بالنسبة إليه مجموعة «معان» (مضمون) ومؤسسات تنقل هذه المعاني (الشكل).

إن سوروكين وكذلك تيونبيك كما يعتبر الباحث يمثلان المذهب المثالي لأنهما يجهلان الأسس المادية للحياة الاجتماعية ويجعلان من المبدأ الروحي مبدأ مطلقا،

في حين يرى أن الأدبيات الماركسية لا تجمع على تصور واحد للحضارة، فحسب إنغلز في كتابه «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة» بأن المجتمع مر بمراحل ثلاث: التوحش والبربرية كبدايات للاجتماعية تستتبع ذلك الحضارة حسب بؤر تنتمي إلى مناطق مختلفة من العالم بعضها بإفريقيا وأخرى بآسيا وأخرى بأوروبا وأخرى بأمريكا ثم لا حديث إلا عن درجات من الحضارة وأشكالها المتواجدة.

لكن اليوم هناك اتجاه نحو الحد من الخصوصية الثقافية بين الشعوب والذهاب إلى ما يسمى الشمولية والكونية إلى ما هو مشترك بين الشعوب والمجتمعات.

الإنسان والقيم:

إن النظر إلى العالم من خلال مرجعية القيم هو الطريق المميزة لمسك الواقع كما يبدو للإنسان والمجتمع.

إن بنية الشخصية تتضمن الحاجة الملحة إلى فهم معنى الحياة والرغبة في معرفة الإنسان ذاته وتقبل نسق من القيم تقوده في مشروعاته وعواطفه ونشاطاته في موضعه في العالم وموقفه من بني جنسه.

إن نظام القيم واقع انصهر في بنية الشخصية أصبح يمتلك الوعي الباطن الفردي والجمعي إلى حد أنه بات من الصعب مراجعة القيم والتخلي عنها.

إن القيمة هي ظاهرة ثقافية واجتماعية في جوهرها تؤدي وظيفة موضوعية وذاتية. فالأشياء في ذاتها وكذلك الأحداث لا وجود لها إذ عزلناها عن الإنسان والحياة الاجتماعية ولا تمثل مقولات ذات قيمة إلا بالنسبة للإنسان.

إن الحياة تضع لكل شيء وظيفة محددة تتمثل في خدمة الإنسان، ويختلف التعامل مع الطبيعة باختلاف الأمزجة والحالات النفسية والتطور الثقافي. إن مفهوم قيمة يستند إلى مفاهيم مثل الدلالة والمنفعة... والقيم ذات طبيعة مادية أو روحية أو معرفية أو قيم تنحو إلى التعذيب والحرب والدمار.

إن القيم ليست دائما مرتبطة بظروف موضوعية وتاريخية معينة هنا نجد رفضا لفكرة التشبيه بالمعنى الساذج والمبتذل للكلمة.

إن مفهوم القيمة يعبر عن خصائص الأشياء والظواهر والأحداث والموضوعات المادية والروحية التي تشبع حاجات الفرد ومصالح الجماعة فلا شيء يكون صالحا إلا من حيث دلالته النسبية للإنسان والمجتمع.

إن الثقافة إذن هي عملية حية تشغل القيم في وجود الفرد والمجتمع فهي عملية إبداعية للقيم وإعادة إنتاجها واستعمالها حسب أنماط تاريخية متغيرة. لقد نشأت الثقافة مع المجتمع وألقت معه تقليدا راسخا وإن تاريخ الثقافة قد عرف ظواهر وفترات من الركود ومن التعصب والمحافظة كما شهد تحولات ثورية وإن مكتسبات الثقافة ماضيا متصلة بالثقافة.

الإنسان بين الوحدة والتنوع:

رغم تعدد زوايا تعريف الإنسان فإنه يبقى من أعجب الكائنات في هذا الكون والوجود، فهو مع ذلك يبقى لغز ذاته وسر كينونته وهو ما أكدته كل الاتجاهات المعرفية عبر التاريخ.

القول الطبيعوي والعلمي:

1 وضع الإنسان: إن المتأمل في هذا المجال العلمي يلاحظ تعدد المنظورات وبالتالي لا وجود لوحدة العلم، فعلم الوراثة أو البيوكيمياء الجزيئية والذين يتباينون بدورهم مع الميكروفيزيائيين.

2 فرنسوا جاكوب البرنامج الوراثي: يتكون البرنامج الوراثي من تغيرات لعناصر لا تتغير من حيث جوهرها، في حين أن المشروع يعني أن الكائن قد نظم من أجل التوالد. والكائنات الحية لم تصل إلينا بفضل هذا التكاثر. إن علم الأحياء المعاصر يطمح إلى تفسير المتعضيات بالرجوع إلى بنى الجزئيات التي تتكون منها وإن تاريخ علم الحياة هو تاريخ الانتقال من الطريقة التي تقول بالتوالد الذي يتجدد مع كل جيل ويقتضي دوما تدخل قوة خارجية إلى التوالد وهو خاصية ذاتية لكل منظومة حية. وهو اكتشاف وحفر في الحياة وطبيعة الحي، من حيث هو برنامج وراثي.

القول الأنتروبولوجي:

الأنتروبولوجيا النفسية: بين فرويد وغيزة روحيم، بالنسبة لفرويد فقد كشف بأن القطيع البدائي، الجد المسيطر والمخصي، قتل أصلي للأب، شعور بالذنب لدى الأبناء وتجمع للاخوة، تصعيد كل هذا يقدم كأحداث متعاقبة وواقعية، كتجربة في تطور النوع البشري، الذي يكسبه وعيا جماعيا متعاليا ووراثة للوجدان. في حين أن روحيم سيركز على تطور الفرد فقد بين ان سعي الطفل في دأبه بحثا عن بديل للأم كان هو القوة الدافعة لعملية التحضر، والتناقض الظاهري في الحضارة هو أن الإنسان أصبح متحضرا لمجرد ابتغاء البقاء طفلا. آلية التنوع الثقافي: لقد اقترح رالف لنتن مجموعة مفيدة من المفاهيم ليدلل على بعض درجات التشابه والخلاف في السلوك داخل ثقافة ما وهو أمر تدعمه أولا زمرة من المفاهيم مثل العموميات(أشكال السلوك التي تتوقع وجودها لدى كل فرد سوي في مجتمع ما: اللغة وأنماط اللباس والسكن وطريقة تنظيم الجماعة لعلاقتها الاجتماعية وكذلك الخصوصيات(تتألف من مظاهر السلوك الخاصة التي تميز جنساً أو جماعة معينة وكذلك الخصوصيات الفردية (وهي أشكال السلوك التجريبية التي تمثل إسهام النزعة الفردية في الثقافة).

إن الخصوصيات الفردية التي يتميز بها فرد ما من جماعة ما مقارنة مع فرد آخر في جماعة أخرى هو ما سماه كاردنار بـ«الشخصية الأساسية».

فالثقافة هي إذن مجموع متحولات في العقيدة واللغة والسلوك والتي تميز مجموعة أو شعبا ما.

5 وحدة الإنسان والثقافة الكونية: إن ترتيب الثقافات يعني إقامة مراتبية بين المستويات الثقافية داخل الإثنية أو الجماعة الواحدة وبؤر تحدد عمق البنى الثقافية والتمايز والاختلاف هو خاصية ملازمة ولازمة لكل ثقافة متأصلة.

فهناك من جهة أخرى ذلك الصراع الداخلي الموجود في أي ثقافة بين القديم والجديد فيبرز في فترات تاريخية عندما تكون أي ثقافة أمام جملة من التحديات الداخلية والخارجية، لكن صلابة أي ثقافة يكمن ويبرز في هذا التوازن والاعتدال بين الجديد والقديم.

المثقف والسلطة بين الامتثالية والرفض:

إن العلاقة بين المثقف والسلطة ليست تنافرية إقصائية وليست تكافئية تماثلية بالتساوي بين السلطة والمثقف لأن المثقف سلطة مضادة.

إن المثقف ذات اجتماعية. فعلم النفس الاجتماعي والسياسي لا يأخذ الحدين منعزلين لأن الواحد ينشئ الآخر والعكس بالعكس فالسلطة تنحت المثقف وهو يقوم بدوره التوجيهي. في حين أن السلطة تستمد قوتها من الحياة الوجدانية التي تستند إليها في كل مرة.

تصنيف المثقفين: يقيم غرامشي تقسيمين للمثقفين:

الأول عمودي: باعتبار الأنواع الثقافية لخدمتهم للطبقة البرجوازية أو مصالحها.

الثاني أفقي: الذي يميز فيه بين«تقليديين» هم الفنانون والرجال المتعلمون، وذلك لشعورهم بالاستمرارية والاستقلالية والتحررية من الفئة الاجتماعية المسيطرة و«عضويين»والمثقف العضوي هنا من له علاقة مباشرة بالبنية الاقتصادية لمجتمعه الخاص.

ثم يمر فيما بعد إلى تحديد مفهومي الهيمنة وإقامة طبقة حاكمة، فالمفهوم الأول يشير بالمعنى العام إلى الولاء «العضوي» الذي تحصل عليه فئة اجتماعية مسيطرة من الجماهير بفضل هيبتها الاجتماعية والثقافية وتفوقها المفترض وظيفيا في عالم الإنتاج(القول بنعم).

أما المفهوم الثاني فهو إقامة طبقة حاكمة، فهة إيجاد رؤية شاملة للعالم ولبرنامج سياسي معين.

المثقف والسلطة:

يبين في هذا الإطار التطور الذي حصل في دور المثقف من الاهتمام بالمشغل الخاص والفردي إلى المشغل العام والكوني.

ثم يتناول فيما بعد السلطة في نظر ميشال فوكو ومفهوم المثقف عنده، فبالنسبة للسلطة فإنها ليست بالضرورة قمعية، وهي كذلك لا تملك شيئا إلا في صورة معينة وهي أيضا محددة للدولة، أما الخاصية الثالثة فهي تخرق وتشق المضطهدين لأنها تمر عبر كل القوى التي تكون في علاقة قوى. فكل سلطة هي في تأثر بقوى أخرى كما تؤثر فيها. فهي ككل قوة فعل وانفعال.

أما بالنسبة للمثقف فهناك تغير بالنسبة لدوره ووظيفته بسبب تغير وضعه، فلم يعد دوره مركزا على الشمولية فهو أصبح يهتم بالأمر العام والحياة العامة لأنه يحيا ويعيش مع الإنسان وله قدرة إنشاء ثقافة مضادة لإرساء قيم ومعايير جديدة.

تصنيف بديل:

أ– المثقف الحائر: قوته وضعفه: يتأمل الباحث هنا أن الساحة التونسية تصطدم بقلة الأشخاص الذين يتحركون ضمنها ويتقلص هذا العدد إلى أن يبلغ الشخص الواحد في حالات الأزمات فهناك تغير في المواقف والسلوكات بحسب المواقع التي يوجدون فيها.

أما بالنسبة للمثقف الحائر فتكمن قوته في اقتحام الفضاء المتاح له والقدرة على قول نعم وقول لا فالحقائق بالنسبة له ليست مطلقة وثابتة فهو باستمرار طارحا للأسئلة مفجرا للمسائل له قدرة على تقديم الحجج والمبررات العقلية والواقعية المقنعة.

إن المثقف الحائر يعيش عسرا وقلقا يسعى إلى إبلاغهما إلى آخرين لكنه لا يخلو من هشاشة وضعف موازيين لقوته وعناده.

ب– المثقف الهادىء: يكتفي بالكلام والدعاية دون أن يهدد كيان المؤسسة بالذات في الميزان فهو راسخ في أفكاره الغير قابلة للخلخلة والزعزعة. لا يهتم بالأحداث مهما عصفت فهو سائر على الدرب دون اهتزاز أوقلق.

إن كلا من المثقف الحائر و المثقف الهادىء يعكسان مفارقات السياسي والمدني.

البيو . اثيقا بين العلم والأيديولوجيا:

في مدخل هذا الفصل يبين التحول الذي عرفه الحقل الطبي بين المحافظة على القواعد الأخلاقية البسيطة من السخاء والتعاطف وروح التضحية والمجانية...، في حين أن العصر الحديث عرف ثورتين، هما الثورة العلاجية (اكتشاف البنسلين) والثورة البيولوجية تجسدت في اكتشاف الشفرة الوراثية والقوانين التي تحكم تكوين الحياة.

1 المنظور العلمي المعاصر للإنسان: علم الوراثة الجزئي نموذجا، يبين فيه ما منحت فيه الثورة البيولوجية الإنسان من سلطة تمثلت في السيطرة على الوراثة والتناسل والجهاز العصبي وكذلك مختلف مراحل الحياة بالنسبة للإنسان.

2 الهندسة الوراثية والتحكم في الوراثة: لقد اعتبرت الوراثة تقليديا مخزونا ثابتا لا يتغير لمدة طويلة لكن اليوم فإن الهيئة الوراثية حسب تعبير فرنسوا جاكوب قابلة للقسمة والتحوير والتمطيط والتصغير.

وهذا التحول يثير استتباعات أخلاقية والحقوقية والايديولوجية، فما هي هذه الاستتباعات؟

3 الاستتباعات الأخلاقية والحقوقية والايديولوجية: من أهم المشاكل التي تستثير البيوإثيقا هي مشكلة العقم والإخصاب خارج الرحم، كما تطرح قضايا أخلاقية على صعيد تشخيص الحياة قبل الميلاد.

العولمة الثقافية بين الواقع والاستعارة:

يحلل الباحث البشير المؤدب هذا الفصل ظاهرة العولمة وخاصة البعد الثقافي فيها واستخرج من خلال هذا التحليل جملة المواقف حول هذه الظاهرة، بين الإيجابي والقابل لذلك وبين السلبي والرافض لهذه الظاهرة.

مقاربة المشروع العلمي للثقافة:

تفسر النهضة الحديثة التي تعرفها الإناسة زيادة على العوامل المتعلقة بالخصوصية الثقافية بوجود عوامل شاملة لكل إنسان وهي جملة التحولات التي حصلت في العالم إثر الحرب العالمية الأولى ثم بناء نظام اشتراكي وحركات التحرر ضد الاستعمار وكذلك الثورات العلمية والتقنية التي غزت العديد من مظاهر الحياة العصرية من تسارع في التطور الاجتماعي وتعمق الصلات والعلاقات بين الشعوب والمجتمعات.

إن الإناسة لها وظيفة معرفية فهي تجيب عن سؤال من نحن؟ وهو سؤال يسعى إلى معرفة الشعوب الأخرى والثقافات في العالم وأسلوب الحياة عندهم وعاداتهم وتقاليدهم والعلاقات التي تربط بين الشعوب في الماضي وخصوصياتهم وما هي القواسم المشتركة. إضافة إلى هذه الحاجة المعرفية تستجيب الإناسة إلى حاجة عملية: من التخلف الثقافي والبحث عن تعريف للسياسة الوطنية المتوازنة.

فلسفة الثقافة

إن الهدف من كل التمظهرات الثقافية يتمثل قبل كل شيء في العمل على إنشاء عالم مشترك من التفكير والوجدان أي عالم إنساني يطمح أن يكون عالما مشتركا بدل أن يكون حلما فرديا أو نزوة فردية.

من جهة أخرى فإن اللغة هي الخطوة الأولى والحاسمة في اتجاه العالم المشترك الذي تتوق إليه الثقافة، فاللغة لا تنحصر في اللسان والكلام، في المكتوب والمنطوق بل تتعداهما إلى حدود الرموز في الفن والدين والعلم. فهذه التمظهرات الثقافية لغات تمتلك قواعدها الخاصة بها واستعمالاتها المخصوصة.

ويقدم في هذا الإطار الباحث بعض الأمثلة مثل المادة والحركة في علومي الطبيعة والفيزياء.

ويبين في مستوى آخر أن الثقافة متعددة في التعاريف والمعاني نظرا للبس والغموض اللذين يحيطان بالمفهوم، وهو مفهوم أيضا كان حكرا على علماء الأنتروبولوجيا فهو يتطلب المعاشرة اليومية والمباشرة، ولكن البحث الانتروبولوجي لا يحظى بالعناية الكافية من عامة الناس نظرا لجوانبه التقنية البحتة فهو مجال مهمش ولا يسترعي الاهتمام.

وهذا الأمر يتطلب وضع أهداف لإرساء نظرية ووضع منهج في تحليل الثقافة.

1 تحديد العناصر الأساسية للثقافة.

2 ربط هذه العناصر بالقاعدة البيولوجية بطريقة تسمح بالمقارنة بينها وبين ثقافات أخرى.

3 جمع معطيات وإنشاء منهجية تسمح بالقيام ببحوث وتعليم الثقافة كما الشأن بالنسبة للغة.

4 إنشاء نظرية عامة للثقافة تسمح لنا بالقيام ببحوث أخرى.

5 إيجاد طريقة تسمح لغير المختصين بأن يتمكنوا من الأنتروبولوجيا.

إن الاهتمام بثقافة الغير يهدف في الواقع إلى معرفة أفضل بثقافتنا الخاصة، ضرورة التماس الاختلاف والفرق بالأساس بالحياة والتشبث بها بصورة واعية.

إن التشبث بالثقافة الأصلية مهمة جبارة وشاقة والأبعد من ذلك هي إرادة في المعرفة وهي تنطلق من اللحظة التي نخابر فيها ثقافة أخرى.

منظور العلم الحديث للإنسان

يحلل الباحث بشكل مستفيض في هذا العنصر ببعدين للإنسان مختلفين هما البعد البيولوجي والبعد الاجتماعي، فالإنسان يمثل كيانا بيولوجيا، عضويا وشخصيا، كلا مستقلا متكونا من الطبيعي والاجتماعي، من خصائص موروثة ومكتسبة.

إن الوحدة بين البيولوجي والاجتماعي تأخذ بعين الاعتبار عندما يتعلق الأمر بإنجاز أهداف معرفية أو علمية ، فيقع التشديد على البعد البيولوجي أو الاجتماعي في تحقيق ذات الأهداف.

إن مشكلة العلاقة بين ما هو بيولوجي واجتماعي في الإنسان تأخذ منحىً سجاليا في العلم المعاصر، فعلوم الطبيعة تنتصر للجانب البيولوجي أما العلوم الاجتماعية فهي تنتصر للبعد الاجتماعي وفي كلتا الحالتين فإن كلا من العلمين سيتغافل ويتجاهل بعدا من هذين البعدين، ولكن من الضروري حسب الباحث أن تكون دراسة شاملة للإنسان التي تحسم نسبيا هذا النزاع، لكن من الضروري هنا أن لا نقع في هيمنة ونفوذ خطاب عن آخر وهي خطوة خطيرة تجاه النظرة إلى الإنسان وإنما تسمح هذه الدراسة الشاملة للإنسان في الاختلاف والتنوع وعمق في التحليل والتأويل أيضا.

خاتمة عامة

يمثل هذا الكتاب للأستاذ التونسي في مجال الفلسفة بشير المؤدب مجموعة من المقالات المجمعة في هذا الكتاب وقد حاول الباحث أن يتناول جملة من المسائل التي تهم الحقل الثقافي وعلاقتها بالفلسفة والأنتروبولوجيا والعلم (البيولوجيا والنخبة الثقافية المثقف بالسلطة ومصادر التنشئة الاجتماعية) الأسرة والتربية ومسألة العولمة وبعض إشكاليتها.

لكن الهينة التي لاحظتها عند الباحث المؤدب هو النقص الفادح في بعض المراجع المعتمدة قمرة يدلنا على دار نشر وتاريخ الصدور ومرة لا، وطورا لا يحدد على سبيل المثال أو ندرة التدقيق المكان والزمان وحيثيات ذلك، وفي أطوار لا يحترم التسلسل في كتابة المراجع إسم المؤلف، اسم المقال أو الكتاب، المترجم إذا كان الكتاب أو المقال مترجماً، ذكر المصدر والمجلة وعددها وتاريخ صدورها والصفحة.

---

* باحث في علم الاجتماع من تونس

غدا في القدس العربي:

السياسي العراقي حازم جواد وذكريات عن الشهيد فؤاد الركابي: خروجه من حزب البعث مواجهته لعلي السعدي في دمشق قصته مع جلال طالباني وتفاصيل جنازته التي لم يحضرها الا اقاربه